...من دون خضوع!

الشباب وأشكال السلطة المختلفة

إعداد نزار رمال

هل نتربّى على الخضوع؟ وكيف؟
هل علاقتنا بالسلطة صحّية؟ وعن أي سلطة نتكلم؟
هل نميّز بين ما هو سلطة وما هو تسلّط؟
أين موقفنا مما هو قانون وسلطة وما هو قمع؟ وكيف نتعاطى مع كل منها؟
هل كل القوانين عادلة؟
من يضع القوانين وكيف؟ ومن أين تستمد السلطة شرعيتها؟

هذا قليل من أسئلة عديدة تم طرحها عند محاولة بعض العاملين في ورشة الموارد العربية، وكذلك بعض الشركاء، بناء وتطوير مادة عن علاقة الشباب بالسلطة، وهي جزء من مواد مورد أساسي للشباب يعمل برنامج الشباب والحياة الصحية على تطويره وإنتاجه.

تتدرج مواضيع هذا المورد تحت محورين، محور الصحة الجسدية والجنسية ومحور الصحة الاجتماعية. وموضوع علاقة الشباب بالسلطة هو أحد المواضيع التي ارتأى فريقا عمل البرنامج وتحرير المورد التطرق إليها.

لماذا هذا الموضوع بالذات؟

لأن عيش إشكالية السلطة واكتساب مهارة التعاطي معها يعتبران من مكامن الهمّ الأساسية لدى الشباب، بدءاً من علاقتهم بالأهل والأسرة مروراً بالمدرسة والحي والأقارب والعائلة وليس انتهاءً بمؤسسات المجتمع المختلفة. وعيش هذه العلاقة بشكل صحّي يساعد الشباب على تجاوز أزمة تحقيق الاستقلالية التي يبحثون عنها في هذه المرحلة العمرية، والتقدم بالتالي نحو تحقيق ما يمكن من نضوجهم النفسي والاجتماعي.

في هذا المقال نعرض لنتائج استطلاع سريع وأوّلي أجريناه مع مجموعة من الشباب[1] حول الموضوع.

كما نطرح بعض الآراء والأفكار المتعلقة بنوعية التربية التي نتعرض لها بالعلاقة مع الموضوع "السلطة"[2]، ونعرض مقتطفات عن أنواع السلطة وأشكالها المختلفة[3].

ويقترح المقال ما يسميه: "السلطة المنظّمة أو الايجابية"، وهو يميزها عن "التسلط". وهو يفترض أن جذور الخضوع مرتبطة أو تعود بجزء كبير منها لخلط الراشد بين ما هو سلطة وما هو تسلط خلال تربيته للطفل.

كيف تنظر مجموعة من الشباب إلى السلطة؟

في محاولة لمعرفة رأي بعض الشباب بالموضوع، قمنا بتوجيه ثلاثة أسئلة إلى حوالي ٣٠ شاباً من الجنسين ومن أعمار ١٥ و١٦ عاماً، موزّعين كالتالي:

من بيروت بالتعاون مع مركز الأطفال والفتوة- مخيم شاتيلا، من البقاع في مدرسة بعلبك الفنية، من الشوف في ثانوية عين دارة الرسمية، من المهم الإشارة هنا إلى أن هذه الأسئلة كانت أسئلة مفتوحة، ويحق للمجيب عليها إعطاء أكثر من إجابة واحدة أو فكرة واحدة للسؤال الواحد.

الأشكال التالية توضّح كيف توزّعت ردود الشباب:

ماذا يتبادر الى ذهنك عند سماع كلمة سلطة؟

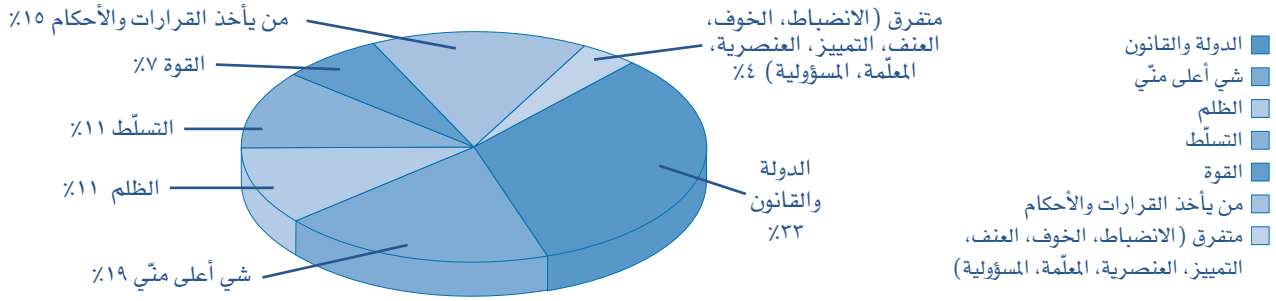

[1] حوالي ٣٠ شاباً من الجنسين من بيروت بالتعاون مع مركز الأطفال والفتوة- مخيم شاتيلا ومن البقاع (مدرسة بعلبك الفنية) ومن جبل لبنان (ثانوية عين دارة الرسمية).
[2] وهي مستقاة وبتصرّف من مقال بعنوان: "من أجل تربية لاعنفية، رهانات تربوية واجتماعية" في "مجلة قضايا لاعنفية راهنة- Non-Violente Actualité، الملف ٥- ١٩٩٨- فرنسا.
[3] وهي مستقاة من كتاب: "أفكار في العمل مع الناس" الصادر عن ورشة الموارد العربية - ٢٠٠٠- لبنان.

ما هي السلطات الموجودة حولك؟

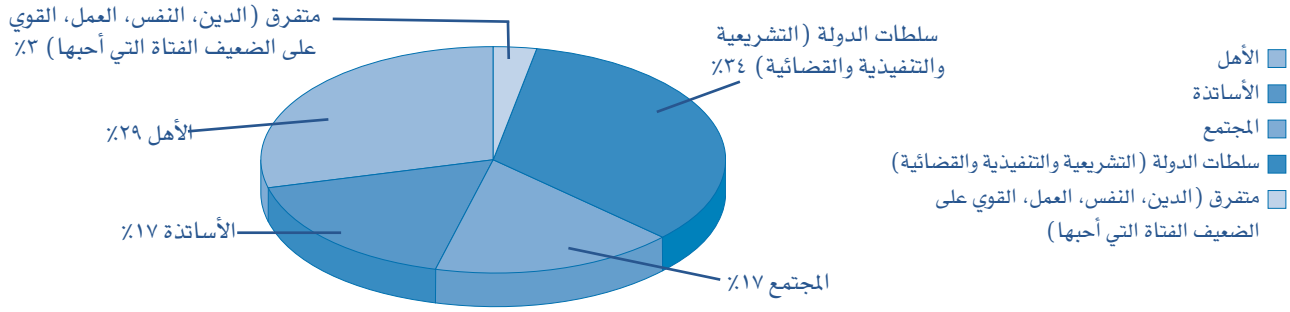

ما الذي ترغب أن يتغيّر في "السلطات" الموجودة حولك؟

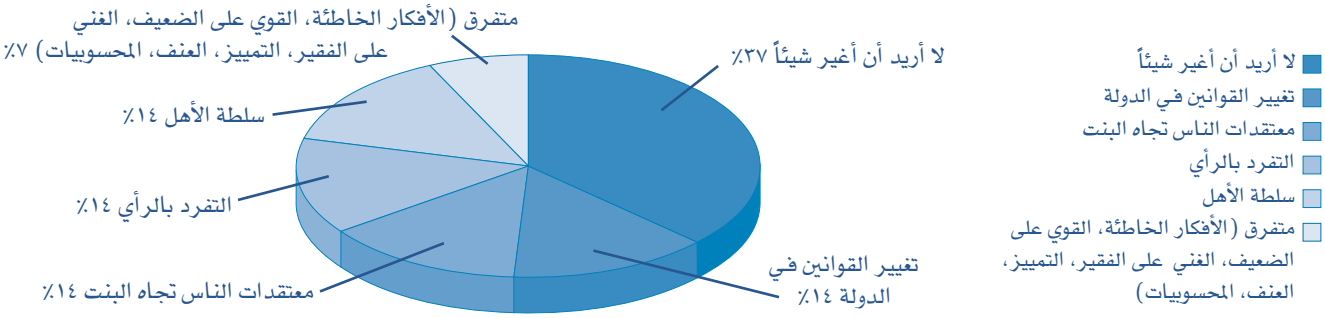

في قراءة أولية، نرى أن قسم كبير من الأجوبة على السؤال الأول جاء ليربط بين السلطة والدولة والتي هي "شيء كبير وعالٍ". من الملفت أيضاً أن العديد من الإجابات ربطت بين السلطة والظلم والتسلّط والاضطهاد، وهي بمعظمها ذات مضامين سلبية. يشير ذلك إلى وجود صورة مغلوطة وسلبية في معظم الأحيان عن السلطة. وإذا ربطنا ذلك بالفئة العمرية التي أعطت هذه الإجابات (١٥-١٦عاماً)، يمكننا اقتراح وجود رابط قوي بين نوعية التربية التي نتعرض لها ومفهومنا للسلطة وتفسير كيفية ممارستنا لها لاحقاً.

بالإجابة عن السؤال الثاني، نلاحظ أن معظم الإجابات جاءت لتقول بأن المستَجوبين بغالبيتهم يعيشون "السلطة" كما يفهمونها في علاقتهم بالأهل والأساتذة (أو المدرسة)، ومن ثم في علاقتهم بالمجتمع عامةً. أما الإجابات على السؤال الثالث، فهي تعكس تركيزاً على الرغبة بعدم التغيير أو عدم القدرة عليه، مقابل توزع لباقي الردود على مواضيع متعددة. يمكننا أيضاً قراءة الأجوبة على هذا السؤال كتعبير عن مواضيع معاناة الشباب وهمومهم. فهي تركّز على التمييز بين الذكر والأنثى، وهمّ العمل والمستقبل (المحسوبيات)، وسلطة الأهل السلبية (تغيير سلطة الأهل إلى صداقة)، والمشاركة السياسية الديمقراطية والفقر (تغيير سلطة الغني على الفقير). عند التمعّن في الردود التي أتت، نلاحظ أنها عكست بجزء كبير منها وجود التباس لدى المجيبين حول مفاهيم الخضوع والسلطة والتسلّط.

ويتضح من ذلك أن بعضاً من افتراضاتنا حول موضوع علاقة الشباب بالسلطة كانت في محلّها. ونعني بها تلك الخاصة بافتراض وجود التباس وخلط كبيرين بين مفهومين مختلفين هما السلطة والتسلط. وبأن هذا الخلط بين المفهوم والممارسة يتسبّب بجزء كبير من سلوكيات الخضوع لدينا في معظم نواحي حياتنا الفردية منها والجماعية، الخاصة والعامة على حدّ سواء.

من هنا، نقترح في الجزء التالي من هذا المقال بعضاً من التعريفات حول الموضوع هادفين بذلك إلى إثارة النقاش بين العاملين مع الشباب والشباب، كما وبين قرّاء النشرة من شركاء، أفراداً ومؤسسات. ونتوخى من ذلك إغناء زوادتنا المعرفية حول الموضوع، وبالتالي إغناء المورد الرئيسي الموجه للشباب الذي نعمل عليه.

القيادة وممارسة السلطة

إن ممارسة القيادة تعني ممارسة السلطان (السلطان والنفوذ) بدرجات متفاوتة. ولكن الكثير من الناس يشعر بالمرارة نتيجة سؤ استخدام السلطة.

من الضروري أن تتأمل الجماعة أو المجتمع في القيم السائدة بين أفرادها في موضوع السلطة والسلطان.

السلطة والتربية

لم تكن كلمة تربية المترجمة عن Education موجودة في القرن التاسع عشر، بل كان حينها يحكى عن الغذاء (راجع قاموس Le Littré). فعل ربّى Eduquer بالفرنسية، وحسب القاموس، يدل على السماح بالنمو (الدفع للخارج)، ويعني أيضاً إبراز

وتنمية ما يحمله المربّى في داخله وليس دفعه إلى ما قررناه نحن عنه.

المطلوب من الكبير أو الراشد إذاً أن يلعب نوعاً ما دور الوسيط الذي يسمح للطفل بالنمو بألفة وانسجام، وعليه في هذه الحالة أن يتحاشى التصلّب المتزمّت الذي يخنق، وأن يتجنب أيضاً التساهل المفرط.

فالتسلط والتهاون يدفعان الطفل إلى الاضطراب الذاتي.

إن نمو الطفل الاجتماعي يتطلب معرفة وممارسة مبدأ: "حرّيتي تقف حيث تبدأ حرّية الآخرين". إن وجود الأطر والمرجعيات يسمح للطفل في البحث عن اكتساب استقلاليته بأمان. فهو يحتاج إلى مرجعية ونقاط استدلال كي يبني نفسه. لذلك من المفيد الاتفاق معه على ما هو مسموح ولماذا وما هو ممنوع ولماذا.

"من الصعب جدّاً أن يكسب الإنسان استقلاليته إذا كان لا يدرك بوضوح ما الذي سيعارضه!".

لذلك، فإنّ إيجاد مناسبات للمجابهة تساعد الإنسان على تنمية إرادته وتقوية حججه. فهو يحتاج إلى فرص يقول من خلالها "لا" كما يحتاج إلى أوضاع أخرى يقول فيها "نعم".

لكن القانون ليس صالحاً أو عادلاً دائماً. لذلك على الإنسان (الطفل، الشاب، الراشد) أن يتعلّم كيفية تحليل هذه القوانين، والتفريق بين ما هو عادل وما هو ظالم، بين ما هو ضروري لحياة المجتمع وما قد فات أوانه.

من هنا، نتبين أنه على الطفل أن يعلم أن القانون يمكن تغييره وتعديله، وأنه من الممكن له أن يقوم بهذا التغيير بنفسه وبالتعاون مع الآخرين أيضاً. ومن المهم هنا أن يكون الطفل واعياً للأمر الذي يدافع عنه، أو يريد تغييره، وأسباب فعله ذلك.

أخيراً، يمكننا القول أن السلطة المنظّمة التي يحتاجها الطفل تُقبل بالطاعة الواعية وليس بالقمع، ولكنها يجب أن تترافق مع تواصل جيد بين الأجيال، ومع عمل متواصل على ابتكار وإيجاد حلول ايجابية للنزاع بين الأطفال والراشدين، ومع وعي الطفل لقدرته على التأثير مباشرةً في عملية تغيير محيطه دون طول انتظار: "حتّى يصبح كبيراً!".

السلطة والتسلّط

علينا التمييز بين السلطة (كما عرّفناها آنفاً) وبين التسلّط Autoritarisme الذي هو حالة من الهيمنة والتطفّل، تحوّل الطفل والبالغ على حدٍ سواء إلى غرضٍ جامد، أشبه بشيء أو متاع لا قوة لديه للتفكير والتفاعل والتغيير والتعبير.

يمكننا القول أن التسلّط بشكل عام يتمثّل بإعطاء الراشد تعليمات للطفل بدون أن ينتظر منه أن يختار احترام هذه التعليمات أم لا، بل يتوقع منه أن يخضع دون تفكير لما أمره أن يفعل من دون إتاحة الفرصة بإعادة النظر به.

أشكال شائعة من السلطة

* سلطة الجماعة (المجموعة)،
* سلطة العنف،
* سلطة الثروة،
* سلطة النوع الاجتماعي،
* سلطة السّن،
* سلطة المنصب،
* سلطة القرابة،
* سلطة الخبرة،
* سلطة المعرفة والعلم،
* سلطة المحبّة،
* سلطة الهيئات والمؤسسات.

جذور الخضوع

إن خضوع الطفل لسلطة الراشد تعود بجذورها إلى استثمار مبكر (واعٍ و/أو لا واعٍ) من قبل الراشد لظاهرتين هما: قلق الطفل من التخاذل، وشعوره بالذنب تجاه عدوانيته.

إن تمثّل الكبار من قبل الصغار يعطيهم (أي الكبار) نفوذاً سحرياً. والشعور بالذنب والخوف من الإهمال سوف يختفيان تدريجياً مع اكتساب الطفل استقلاليته.

لكن إذا عمل الراشدون على تهديد الطفل بحرمانه من حبّهم وعلى تقوية إحساسه بالذنب، فسوف يسهّل هذا بناء "أسطورة الكبير الراشد الحر الوحيد القادر" على التصرف والفعل والحب وفرض الأمور، الأمر الذي يسهّل نمو ردود فعل ومواقف لا واعية مرتبطة بالخضوع والسلطة. هذا الأمر سيتكرر فيما بعد مع أصحاب السلطة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية... الخ.

من هنا، يترتب علينا التمييز واستيعاب الفرق ليس بين كلمتي التربية والطاعة فحسب، بل بين كلمتي طاعة وخضوع أيضاً.

حرّية ووعي

إذا "سمحنا" للطفل أن يخضع لسلطتنا فكيف نتفاجأ فيما بعد إذا رضخ بسهولة إلى التسلّط، إلى رئيسه والى المُحتلّ!؟ فما نحن بصدده هنا لا يقتصر فقط على الطاعة أو على الرفض، لأن الطاعة ليست ميزة أو عيب، بل يتعدّاه إلى كيفية الطاعة والاستفسار عن الأسباب المقترنة بها.

اذاً، على الطفل أن يفهم أسباب الطاعة ويقتنع بها، وليس لأن المعلّمة أو الكبير قالا ذلك، أو لأنه لم يتجاسر على قول لا مع أنه لم يكن موافقاً.

من الضروري أن يتاح للطفل فرص شتّى لتنمية مقاومته الطاعة العمياء، الأمر الذي يسمح له أن يقوم باعتراض واعٍ بكل معنى الكلمة. وعندما تنمو هذه الفكرة في المجتمع، وخاصةً في المدارس، تكون هذه المفاهيم (المرتبطة بمقاومة الخضوع والاتجاه الواعي المستقل) قد أصبحت جوهرية ومتأصلة عند الطفل وعندنا.

أخيراً، قد يختصر الكلام قول إحدى الفتيات اللواتي استجوبناهنّ (ليال ١٥ عاماً): "السلطة بحد ذاتها ليست خطأً، ولكن لا أريدها أن تقمعني أو تخنقني. أريد أن يكون بامكاني تغييرها!".

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖